

الأساس هي الطب النفسي الافتراضات الأساسية: الفصل الخامس:

ملف اضطرابات الإراقة (21)

إثارة قضية لا تسمع بالهريج

"الإنسان مخير أم مسير"

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD26415.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2015/04/26
السنة الثامنة - العدد: 2795



مقدمة:

سألني بعض الأصدقاء (أو تصورت ذلك) لماذا تجنبتُ أن أتطرق للحديث عن مسألة "هل الإنسان مخير أم مسير"، وهو مسألة تتعلق بالإرادة بشكل يكاد يكون مباشرًا؟ انتبهت إلى وجهة السؤال، خاصة وأنا أمارس في العلاج الجمعي هذه المسألة طول الوقت، ونكاد نمنع (من خلال التفاعل بالاتفاق) الاعتذار بأنه "غصبا عنى" (غضبٍ عنى)، ليتحمل كل منا مسئولية كل فكرة، أو قول، أو فعل، بل وجدان، "هنا والآن"، ثم يا حبذا فيما بعد! وعادة تكون النتيجة في صالح تأكيد مسئوليتنا عن الداخل والخارج طول الوقت (ولو نسبيا) [1]

لكن إذا انتقلنا إلى مناقشة مبدأ "الجبر والاختيار"، خاصة لو أضيف إليه مبدأ "القضاء والقدر" والمكتوب " نجد العكس تماما، فأغلب الناس يفضل أن يعزو كل الأمور إلى إرادة من خارجه، وبالذات إلى الله سبحانه، بتسليم طيب، أو بتواكل سلبي، والأخرون ينسون أنه "... وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ" وأنه "...فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ". وددت لو تجنبتُ الخوض في هذه المسألة، حتى لا أقترب من إشكالات ذات صبغة دينية لا أريد أن أدلى بدلوى فيها حتى لا تختلط الأوراق، لكن يبدو أن هذا يمكن أن يكون مستحيلا إذا أردنا تحمل مسئولية البحث والمخاطرة بمحاولة الإجابة، كما يلي:

بعد أن أوضحنا كيف أن الإرادة ليست واحدة، وأن الإرادات متعددة ظاهرا وباطنا، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستويات الوعي، وأنه لم يعد يشترط في الإرادة لكي تكون إرادة أن تصل إلى اتخاذ قرار واضح معلن، وبعد أن أوضحنا كيف أن كل فعل إرادي تقريبا، حتى لو بدا فعلا انعكاسيا ميكانيكيا، فإن أصله إرادي، وحقيقته أنه اختيار ذكي أو غبي حسب مدى اتساقه مع برامج التطور، وقدرته على تعهد دعم ورعاية ما خلقه الله به، بعد كل ذلك - إن صح كله أو بعضه - زادت مسئولية هذا الكائن العظيم المسمى "الإنسان" وهو المسئول عن نفسه ونوعه بوعي نسبي، ولعل في ذلك ما يقابل "حمل الأمانة".

في محاولة تمهيدية للإجابة عن هذا السؤال اللوح رحنتُ أبحث عن الشائع بين الناس (ناسنا بالذات) أكثر من بحثي عن القضية فلسفيا أو تاريخيا أو حتى تطوريا "هل الإنسان مسير أم مخير"،

أغلب الناس يفضل أن يعزو كل الأمور إلى إرادة من خارجه، وبالذات إلى الله سبحانه، بتسليم طيب، أو بتواكل سلبي، والأخرون ينسون أنه "... وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ" وأنه "...فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ".

أن الإرادات متعددة ظاهرا وباطنا، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستويات الوعي

أوضحنا كيف أن كل فعل إرادي تقريبا، حتى لو بدا فعلا انعكاسيا ميكانيكيا، فإن أصله إرادي، وحقيقته أنه اختيار ذكي أو غبي حسب مدى اتساقه مع برامج التطور، وقدرته على تعهد دعم ورعاية ما خلقه الله به

"إن الإنسان مخير فيما يعرفه مسير فيما لا يعرفه"، رحنتُ أتأمل هذا التوصيف، وأنا أتساءل: أليس في هذا دعوة

ألا نعرفه أكثر فأكثر فتنازل
عن مسئولية الاختيار (وحمل
الأمانة) أكثر فأكثر

نصحت المبعوثين ابتداءً أن
يضع كل منهم - ولو نسبياً -
أفكاره المُسبقة التي تملأ
خلاياه كلها، وليس فقط عقله
أو مخه، يضعها بين قوسين، لا
ينساها، ولا يتنازل عنها، ولكن
لا يلبسها درعاً يحميه من
خيرها أو ضدها، وأن الله
سبحانه سوف يحاسبنا على ما
نتعلمه منهم، وما لم نتعلمه

كان من الممكن أن تتغير
إلى أفضل ما خلقك الله به لو
أنك تعلمت من المختلف
معك معنى الاختلاف وطبيعته
ومداه وفائدته

بمعنى: لماذا عزفت عن
النهل من نهر جار واعتبرته
خطراً عليك، وأنت لم تتذوق
ماءه أصلاً؟

أن الإنسان - ما دام قد حمل
الأمانة - فهو مطالب بطول
الوقت، ثانية بثانية أن يعرف
أكثر ليصبح مختاراً أكثر،
وأنه حين يرفض أن يعرفه،
فإنه إنما يختار من وراء
ظلمه، وفي هذا الاختيار
الخفي، إرادة خفية، سوف
يُسأل عنها ضمن "ما تخفى
الصدر".

إن ما أكرمنا به ربنا، وما

وقد وجدت أغلب الإجابات إما استشهاد بنص يحتاج شرحاً في ذاته قبل أن نجعله دليلاً على ما جاء
به، وإما استسهال بإطلاق تعميم مثل قولهم (مصطفى محمود مثلاً) "إن الإنسان مخير فيما يعرف
مسير فيما لا يعرف"، رحت أتأمل هذا التوصيف، وأنا أتساءل: أليس في هذا دعوة ألا نعرف أكثر
فأكثر فتنازل عن مسئولية الاختيار (وحمل الأمانة) أكثر فأكثر، وبالتالي: أليس هذا هو الهرب بعينه
ضمن التنازل عما يميّز الإنسان على قمة الهرم الحيوى، وهو هو ما يجعله "ظلوماً جهولاً" حين
يتصدى لحمل الأمانة، وفي نفس الوقت يتهرب من القيام بمسئولية تعمير الأرض والإبقاء على النوع
وتطويره؟

ذات مرة: دعاني مسئول في وزارة الخارجية إلى إلقاء محاضرة إرشادية للمبعوثين الفائزين
بمنح علمية للسفر للخارج لإكمال دراستهم أو تحضير رسائلهم، وذلك تحضيراً للمبعوث من قبل
الوزارة للتأهيل لمواجهة ما يسمى "الصدمة الثقافية" عند سفره وتعرضه لثقافة مختلفة في بيئة مختلفة،
ومن ثمّ مسئولية تحمل احتواء الثقافة المواجهة، أو الانحناء لها بالتقليد والتبعية، أو مقاومتها بالتعصب
والغرور والجهل، وفي المحاضرة (الوحيدة) التي كلفت بإلقائها حاولت أن أوصل للمبعوثين ليس فقط
ما أعرف من تنظير وما بذلت فيه من قراءات، عن هذه الفروق الثقافية، في العلم والأدب، (مثلاً: في
"عصفور من الشرق": توفيق الحكيم أو "موسم الهجرة إلى الشمال": الطيب صالح)، وإنما أيضاً من
خلال خبرتي المتواضعة مبعوثاً لمدة عام واحد في فرنسا، تلك السنة التي أصفها بأنها سنة ثقافية
تجريبية أكثر منها "مهمة علمية"، في تلك المحاضرة نصحت المبعوثين ابتداءً أن يضع كل منهم -
ولو نسبياً - أفكاره المُسبقة التي تملأ خلاياه كلها، وليس فقط عقله أو مخه، يضعها بين قوسين، لا
ينساها، ولا يتنازل عنها، ولكن لا يلبسها درعاً يحميه من غيرها أو ضدها، وأن الله سبحانه سوف
يحاسبنا على ما نتعلمه منهم، وما لم نتعلمه، فسألني أحدهم: وكيف يحاسبنا على "ما لم نتعلمه"؟ فقلت
له لأنه كان من الممكن أن تتغير إلى أفضل ما خلقك الله به لو أنك تعلمت من المختلف معك معنى
الاختلاف وطبيعته ومداه وفائدته، ثم سمحت لما وضعت بين قوسين أن يتفاعل معه فتتمو به إلى ما
أعدك خالقك له، وفي رأيي أن ربنا سوف يسألك - كما سوف يسألني - عن سبب رفضك أن تتعلم
كذا حتى أن تعرف ماهيته، مع أنه كان متاحاً لك، بمعنى: لماذا عزفت عن النهل من نهر جار
واعتبرته خطراً عليك، وأنت لم تتذوق ماءه أصلاً؟ وكأنني كنت أحاول أن أوصل لهم مسوليتهم عن
أن الإنسان - ما دام قد حمل الأمانة - فهو مطالب طول الوقت، ثانية بثانية أن يعرف أكثر ليصبح
مختاراً أكثر، وأنه حين يرفض أن يعرفه، فإنه إنما يختار من وراء ظهره، وفي هذا الاختيار الخفي،
إرادة خفية، سوف يُسأل عنها ضمن "ما تخفى الصدر".

إن ما تخفى الصدر هو "أنا" أيضاً، وسوف نُسأل عنه ، تماماً كما سوف نُسأل عن ما نأتى وما
نذّر، بل إن ما أكرمنا به ربنا، وما ورطنا به أنفسنا من التصدي لحمل الأمانة، وحتى لا نبوء بظلم
أنفسنا بسبب جهلنا بقدر مسوليتها وثقل حملها، إنما يلزمنا بالألا ننتظر حتى يسألنا الله عما أخفينا في
صدورنا وادعينا بناء على ذلك اننا غير مختارين فيه، بل إن الشعور باحترام ما أكرمنا الله به من
وعى، ووعى بالوعى، وهذى لمن اختار أن يهتدى، هذا الشعور يلزمنا أن نكون مسوليين عن كل

مستوى وعى نحن نعمله عبر ملايين السنين (تاريخ الحياة)، بل إن من يحترم الحياة عليه أن يقبل قرض أن من انقرض من الأحياء (999 من كل ألف عبر تاريخ الحياة كما كررت مرارا) [2] قد انقرض لأنه أساء اختيار البيئة والمحيط ومن يتكافل معه من أحياء، وبالتالي لم يستطع أن يستثمر برامج التطور التي خلقها الله له لتحفظه، ليبقى ويستمر ويتطور، فانقرض.

من هذا المنطلق ، وبعد أن اكتسب الإنسان الوعي، والوعي بالوعي، أصبح على كل فرد أن يتحمل مسئولية كل مستويات الوعي، سواء وصلت إلى وعيه الظاهر أم ظلت بعيدا عن مستوى بؤرة اختياراته المعلنة، أستلهم هذه المسئولية من ربنا، وهو ينبهنا أن "من أحيائها فكأنما أحيانا جميعا"، ذلك أن المؤمن حين يرعى كل خلية، (كل ثانية أو جزء منها)، فيه، أو فيمن هو مسئول عنه (وهو مسئول عن كل الناس) هو إنما يحيى نفسه ثم الأقرب فالأقرب، فهو يحيى الناس جميعا، وهو بذلك يحافظ على نوعه بوعى لم يتمتع به من قبله من أحياء.

شعرتُ في هذه اللحظة أنني جعلت المسألة أصعب فأصعب، فهل هذا صحيح أم أنني أحترم تاريخ نوعي، وفضل ربي، وأستلهم كلماته، لاختار ما ينفع الناس ويمكث في الأرض؟ وهو ما يحاسبني ربي عليه منذ الآن، وحتى ألقاه؟ هل في هذا تعصيب أم تكريم لهذا الكائن الرائع المسمى الإنسان.

الإنسان مخير دائما أبدا، ومن يستسلم لما وجد نفسه فيه بادعاء أنه لم يكن له فيه خيار، لا تزال عنده فرصة أن يعيد الاختيار كل ثانية (أو جزء منها)، ولن يضل إن هو لم يستسلم للظاهر من وعيه وعمل حسابه ليوم العرض (الذي يبدأ من الآن) "يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ"، ولم يتحجج بأنه لم يكن يعلم بحركية مستوى وعيه الخفية ، فهو قادر على أن يعلمها ما دام أن خالقه نبهه أنه يعلمها " وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى"، وهو إن استعبط ونسى أو تناسى مسئوليته فسوف يذكره خالقه بما عمل مُحضراً، وسوف يحاسبه على ما بصدره، وليس فقط على ما أعلنه وعرفه، "إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" وسوف يتجمع ما فى الصدور أمام خبير عليم "وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ"

العقول الظاهرة تختار، والقلوب تختار حين تتخلق من التجربة والوعي والمسئولية طول الوقت فى حضوره تعالى طول الوقت "أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"

هذه الرؤية لا تنطبق على المتدينين فقط، ولا حتى على المؤمنين الكادحين دون غيرهم، فتاريخ الحياة صريح مباشر، ومن يعيش بوعى حضور الله فى وعيه إلى ما وسعه كرسية طول الوقت، هو لا يفعل شيئا إلا أنه يتعهد فطرته التي خلق بها، فهو يحافظ على ما خلقت له، وما علومنا (النفسية بالذات وغيرها)، وإبداعات البشر فى كل المجالات، إلا وسائل تساعدنا على أن نعرف كيف خلقنا الله، لعلها تهدينا إلى أين نسير

الخلاصة، وحسابي على الله، هي أنه لكى تكون إنسانا مكرما حاملا للأمانة فأنت:

مخير فيما علمت وما لم تعلم

ورطنا به أنفسنا من التصدي
لحمل الأمانة، وحتى لا نبوء
بظلم أنفسنا بسبب جهلنا بقدر
مسئوليتنا وثقل حملها، إنما
يلزمنا بالأمنتظر حتى يسألنا
الله عما أخفيها فى صدورنا
وإدعينا بناء على ذلك إنما
خير مختارين فيه

إن الشعور باحترام ما أكرمنا
الله به من وعى، ووعى
بالوعى، وهذى لمن اختار أن
يهتدى، هذا الشعور يلزمنا
أن نكون مسئولين عن كل
مستوى وعى نحن نعمله عبر
ملايين السنين (تاريخ الحياة)

بعد أن اكتسب الإنسان
الوعي، والوعي بالوعي،
أصبح على كل فرد أن يتحمل
مسئولية كل مستويات الوعي،
سواء وصلت إلى وعيه الظاهر
أم ظلت بعيدا عن مستوى
بؤرة اختياراته المعلنة

أستلهم هذه المسئولية من
ربنا، وهو ينبهنا أن "من
أحيائها فكأنما أحيانا
جميعا"، ذلك أن المؤمن حين
يرعى كل خلية، (كل ثانية
أو جزء منها)، فيه، أو فيمن
هو مسئول عنه (وهو مسئول
عن كل الناس) هو إنما يحيى
نفسه ثم الأقرب فالأقرب، فهو
يحيى الناس جميعا، وهو بذلك
يحافظ على نوعه بوعى لم
يتمتع به من قبله من أحياء

مخير فيما اخترت لنفسك وما اختاروه لك، وأنت تستطيع أن تعيد الاختيار
مخير فيما اخترته للناس وقد سمح لك خالقهم أنك لو أحببت نفسك واحدة فكأنما تحيي الناس
جميعا

مخير فيما استسلمت له من قول غيرك دون فحص أو عدل أو نقد

مخير فيما نقدته من هذا القول على مسئوليتك

مخير فيما أصابك منك، وما أصاب غيرك منك

مخير فيما أخذت، وما تركت وكنت تستطيع ألا تتركه ربما كان فيه نفع لك أو لغيرك

أنا آسف

لست متأكدًا، لكنني مجتهد على الطريق، أحاول طول الوقت.

كتبت هنا في نشرات سابقة، وأنا أعقب على كلمة عابرة طفت على وعي شيخي محفوظ في

إحدى صفحات كتاباته الباكورة في تدرجاته للعودة للكتابة حتى يظل مختارًا حتى على الورق حتى

يلقاه، كتبت في صفحة التدريب الكراسة الأولى رقم (36) بتاريخ 4-3-1995، والتي ظهرت في

النشرة رقم (1469) بتاريخ 8-9-2011، كتبت أعلق على ما كتبت وهو

"الله يهدي من يشاء"،

كتبت ما يلي:

إرادة الله أن يهدي من يشاء، لا تتعارض مع إرادة المهدى، وبالتالي علينا أن نحاول مناقشة أين

يقع ثواب من اهتدى إذا كان الأمر يبدأ هكذا من إرادة فوق إرادته....قلت:

".... ما دامت العملية مستمرة، لأن نبض الحياة/الموت هو عملية إيقاع حيوى مستمر، (مما

جعلنى أرى الموت - أخيرا- باعتباره "أزمة نمو") فالفرصة متاحة لمن لا يكف عن الحركة النابضة

الإيقاعية المستمرة

(إلى أن قلت.....)

"عندى أن حركية الهدى والهداية هي عملية متصلة متصاعدة، ما بين الداخل والخارج فى اتساق

لا ينفصل ولا يتصل،

لا ينفصل بمعنى لا يستقل، ولا يتصل بمعنى لا يتلاشى،

(ولم أزد)

وحين عدت الآن إلى ما كتبت وجدته يحتاج إلى تحديد يليق بالتناول الحالى:

إن التسليم بدوام حركة الداخل والخارج هذه، انطلاقًا من دوام الإيقاع الحيوى، جنبًا إلى جنب مع

مسئولية الوعى بالوعى والإرادة المتعددة المستويات، لا بد أن يصله أن الوعى الظاهر الذى نخصه

بالاختيار:

هو لا ينفصل عن بقية مستويات الوعى التى تمده بالبنية التحتية والعتاد لعملية الاختيار،

وهو لا يتصل بمعنى أنه ليس بالضرورة أن نعى طبيعة وحقيقة المستوى الذى أسهم فى الاختيار،

لكننا نتحمل مسئوليته من خلال نقد نتائجه واحتمال تعديله، وتقدير مدى فائدة استمراريته وجدواه: هل

هو ينفع الناس ويمكث فى الأرض أم لا ؟

الإنسان مخير دائمًا أبدًا،
ومن يستسلم لما وجد نفسه
فيه بادعاء أنه لم يكن له فيه
خيار، لا تزال عنده فرصة أن
يعيد الاختيار كل ثانية (أو
جزء منها)، ولن يضل إن هو
لم يستسلم للظاهر من وعيه
وحمل حسابه ليوم العرض
(الذى يبدأ من الآن)
"يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى
مِنْكُمْ خَافِيَةٌ

العقول الظاهرة تختار،

والقلوب تختار حين تتخلق من

التجربة والوعى والمسئولية

طول الوقت هى حضوره

تعالى طول الوقت

من يعيش بوعى حضور الله

هى وعيه إلى ما وسعه كرسيه

طول الوقت، هو لا يفعل شيئًا

إلا أنه يتعهد فطرته التى

خلق بها، فهو يحافظ على ما

خلقت له، وما علمونا

(النفسية بالذات ومغيرها)،

وإبداعات البشر هى كل

المجالات، إلا وسائل تسامدنا

على أن نعرفه كيمنه خلقنا

الله، لعلها تهدينا إلى أين

نسير

لذى تكون إنسانا مكرما

حاملًا للأمانة فأنت:

مخير فيما علمت وما لم تعلم

مخير فيما اخترت لنفسك وما

اختاروه لك، وأنت تستطيع

أن تعيد الاختيار

يبدو أن تحديد قدر الإرادة في فعل ما من خلال تقييم النتائج دون وضوح عملية الاختيار ذاتها هو من افضل المناهج موضوعية التي ترشدنا إلى اختيارات القلوب التي في الصدور
"فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا"
(غالبا)

برجاء الرجوع - لمن شاء- إلى نشرة: "الأحد: 17-8-2014 العدد: (2544) ، ونشرة: 30-3-2015، العدد: (2768).

("العقل الوجداني لاعتمال للمعلومات"، (نشرة 24-8-2014) (نشرة 25/8/2014) وأيضا الكتاب الذي أشرت إليه في نشرة: 29-9-2014 وهو:

"The Evolution of the **Emotion-Processing Mind** With an Introduction to Mental Darwinism" Edited by: Robert Langs Copyright: 1996"

أما من ناحية الخبرة اليومية العملية، فسوف أعرض غدا عينة من خبرة في العلاج الجمعي، وهي التي أشرت لها في بداية هذه النشرة

[1] - أنظر نشرة باكر الاثنين

[2] - "الانقراض جينات سينة أم حظ سيئ"، دافيدم. روب، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي،

المجلس الأعلى للثقافة، سنة 1998.

*** **

نشرات الإنسان و التطور - اصدار حسب المهور

أ.د. يحيى الرخاوي

خريف 2013 / شتاء 2014

"الإدراك... قراءة من منظور تطوري"

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter14.pdf
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter14.rar

خريف / شتاء 2012 - 2013

"في تجليات ماهو صوت"

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter13.pdf
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter13.exe

ربيع - صيف 2012

"القياس... قراءة من منظور تطوري"

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookSpring&Summer12.pdf
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookSpring&Summer12.exe

اصدار شتاء 2012

عندما يتعري الإنسان

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookWinter12.pdf
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookWinter12.exe

*** **

دليل نشرات " الإنسان و التطور"

<http://www.rakhawy.org>

www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm

مخير فيما اخترته للناس وقد
سمع لك خالقهم أنك لو
أحييت نفسا واحدة فكانما
تحيي الناس جميعا
مخير فيما استسلمت له من
قول تخيرك دون فحص أو
مدل أو نقد

مخير فيما نقدته من هذا
القول على مسئوليتك
مخير فيما أطاك منك، وما
أصاب تخيرك منك

مخير فيما أخذت، وما تركت
وكنبت تستطيع ألا تتركه ربما
كان فيه نفع لك أو لغيرك
أذا أسفه